

البنوية ودراسة الشخصية الروائية

أ. عبد الوهاب بويمة
جامعة عنابة

الملخص

تحاول هذه الدراسة البحث عن حظ الشخصية من الدراسات البنيوية مع العلم أن البنيوية تعلي من قيمة الجماعة على حساب الفرد وتبحث عن النسق والعلاقات على حساب الحالات المعزولة، وتستعين البنيوية على أدوات إجرائية من قبيل النسق والشكل والاختلاف والوظيفة، وهي أدوات يمكن الاستعانة بها في دراسة الشخصية الروائية إذا تم التعامل معها بوصفها علامة مثل بقية العلامات، مع التأكيد على أن الشخصية/ العلامة تختلف عن العلامة اللسانية بعض الشيء؛ لأن هذه الأخيرة عبر دوالها تستحضر مدلولاتها مباشرة، في حين أن الشخصية بوصفها دالا فارغا تستدعي مدلولها بعد الانتهاء من القراءة.

الكلمات المفاتيح: الشخصية، البنيوية، النسق، الرواية، الشكل، الوظيفة

ظهرت البنيوية ردا على هيمنة الدراسات السياقية بحمولتها النفسية ومرجعياتها التاريخية والاجتماعية، وموقف البنيوية من هذه الدراسات ينعكس على موقفها من الشخصية، فما هي البنيوية؟ يقول جون كوزيني J. Cuisinier : " تبدأ البنيوية الحقبة عندما نسلم بأن مجموعات مختلفة يمكن لها أن تتقارب، ليس على الرغم منها وإنما بمقتضى اختلافاتها"⁽¹⁾ فإذا أسقطنا هذا الكلام على بنية الشخصيات، يضطرنا الأمر إلى دراستها لا كحالة فردية بل ضمن مجموعة تتقارب وتتجمع حول موضوع ما بمقتضى اختلافاتها التي قد نلاحظها من خلال وظائفها في الحكاية.

ويقودنا الكلام عن الاختلاف - القيم الخلافية للعلامة - إلى الشكل؛ لأن كل ما له بنية يستلزم ألا يكون عديم الشكل⁽²⁾، وإذا كان هناك بنية لأول مرة، فلأن هناك وحدات بأشكال مختلفة مستعملة وفق قواعد تجميع مختلفة، وليس كما اتفق، ويعكس وجود بنية ما وجود اختيار في تنظيم هذه الوحدات، فما هو معيار هذا الاختيار؟ إنه الوظيفة، وهو مفهوم أساس في اللسانيات البنيوية، فحين أتكلم عن البنيوية في العلوم الإنسانية دون التعرض إلى الوظيفة في الوقت نفسه يصبح الوقوع في الثرثرة واردا، كما يذهب إلى ذلك جورج مونا⁽³⁾ G. Mounin ومنه نفهم لماذا تدرج أعمال بروب ضمن الجهود البنيوية المبكرة. غير أن بروب عمد إلى عزل الوظيفة عن يقوم بها وهو بهذا كمن يعزل الدال عن المدلول.

ويأخذ مونا طاوله يستدل بها على أهمية الوظيفة بالنسبة إلى اللسانيات - مع التأكيد دائما على أن القصة نص مستقر لسانيا - إذ يعني تحليل بنية هذه الطاولة البحث عن الوحدات الحقيقية لبنائها وإبرازها قطعة قطعة بطريقة نستطيع من خلالها إعادة تركيبها وإرجاعها إلى صورتها الأولى (لأنني أستطيع أن أفككها لأضمن لها وظيفة أخرى؛ حطب لإشعال النار مثلا، ومن ثم لا نستطيع إعادة تركيبها لأداء وظيفتها الأولى - باعتبارها طاولة -)، سنجد أمامنا وحدات من نمط (أ) تمثل أقدام، ووحدة من نمط (ب) تمثل القاعدة أو الإطار، ووحدة من نمط (ج) تمثل الدرج الذي أستطيع أن أفككه أيضا، فما توصف به أقدام الطاولة في البنية المذكورة سابقا ليس شكلها ولا مادتها فلو تعرضت إحدى الأقدام للكسر لاستطعت أن أعوضها؛ فتتغير وظيفتها الجمالية بينما لن تتغير وظيفتها كطاولة⁽⁴⁾. ومنه تتمايز الوحدات

وتختلف عن طريق الوظيفة (وظيفة القدم، وظيفة الدرج...) التي تقتضي الشكل الذي سيساعدها؛ إذ يجب تعريف الوحدات اللسانية انطلاقاً من وظيفتها التي تسبق شكلها وتحدد جوهرها وتتحكم في توزيعها. ومنه يصبح الحديث عن وظائف الشخصية أهم من الشخصية نفسها بعيداً عن شكلها أو علاقتها بالآخر وهذا كلام يحتاج إلى إعمال فكر وتريث.

ويحتاج كلام مونان إلى مراجعة، لأن الوظيفة تستدعي الشكل، فلو أخذنا ديناراً* وأردنا استعماله؛ فإن وظيفته ستختلف باختلاف الحاجة إليه، فلو استعملته في المبادلات التجارية، لكانت قيمته في سوق المبادلات هي التي تهم، أما إذا استعملته سداداً، فسأراعي في هذه الحالة قطره، إذ أسعى إلى أن يناسب قطر الفتحة المراد سدها، أما إذا أردت أن استعمله سناداً أسند به قائماً من قوائم الطاولة فسأنظر إلى سمكه حتى أقضي على التفاوت الموجود بين القوائم⁽⁵⁾.

إن ما نلاحظه في هذا المثال هو أن الدينار يوظف كل مرة لأداء وظيفة معينة يتم فيها التركيز على ركن وإهمال بقية الأركان، ويخرج كل مرة عن الإطار الحقيقي الذي وضع لأجله، ويطلب كل مرة بالخضوع إلى شروط ما حتى يتلاءم مع الوظيفة الجديدة، وهذا حال يتطابق مع حال الشخصية التي تستخدم لأداء وظائف مختلفة، تلزمها كل مرة بتغيير شكلها ومظهرها، ويقع التركيز كل مرة على وصف جانب وإهمال جوانب أخرى بحسب الحاجة إليها. وهو الإشكال الذي نجده في العلامة اللغوية التي تتخذ شكلاً يتناسب مع وظيفتها.

ويذهب هنري لوففر H. Lefebvre في هذا السياق أيضاً، إذ يرى أن هذا المختص، الذي يفكك ويركب محركا، يفكر بنيوياً؛ إذ يتعامل مع كل قطعة بحسب شكلها ووظيفتها، وتملك كل واحدة خصوصياتها في الكل المكون منها؛ إذ تصنف القطع بحسب اختلافاتها وبحسب علاقات التضمن والاستبعاد، أو التشابه والاختلاف، فهذا المحلل الذي يحلل ويركب أنظمة وظيفية هو في الواقع بنيوي⁽⁶⁾. يقوم بعمل ميكانيكي قوامه الوظيفة التي تربط العنصر ببقية العناصر في نسق نظامي معين.

بيد أن هذه الأمثلة المقدمة أمثلة مادية، تخضع فيها الأشياء للملاحظة والتجريب، بخلاف الشخصيات التي تمر عبر مستويات وأشكال ووظائف مختلفة وتشهد نفورا متزايداً من دراستها من قبل البنيويين إذ أن الانتقادات التي وجهت لبروب عندما فصل الوظيفة عن الشخصية لم تعترف بكينونة الشخصية بل اعتبرتها مشاركا ليس إلا. انطلاقاً من تحليل هذا المثال وهو مثال من بين مئات الدراسات البنيوية نتساءل مع المتسائلين هل يستنتج مما سبق أن البنيوية مجرد تنوع للشكلية؟

إن اعتبار البنيوية تنوعاً للشكلية يكون في حالة ما إذا كنا نعني بالشكلية نوعاً من الشرح يقوم على هئية نماذج؛ بمعنى وجود قواعد تسمح ببناء بنيات تصبح الأنظمة بفضلها معقولة وواضحة⁽⁷⁾، وبشرط الاهتمام بالمحتويات حتى في أصغر حالاتها إذ توجد لغات نستطيع استنباط معجمها من التركيب، ومنه لا تقتصر البنيوية على سن القواعد النحوية التي تجعل اشتغال النظم التركيبية معقولة، إنها تسعى أيضاً إلى جعل المعجم نفسه معقولاً، فالاسم مثلاً عند غريماش قد يحمل برنامجاً سردياً مضمراً - اللازم مثلاً أو الولي الطاهر في روايات الطاهر وطار - كما أن الكلمات ومدلولاتها التي تغطيها تغدو وسائل حساسة لبناء نظام معقول مكون من تعارضات ذكر / أنثى، غني / فقير ... إلخ، ويصبح هدف الدارس هو الكشف عن الأنظمة الثقافية التي تحكم الإبداع وإثبات أن هذه الأنظمة تنتج عن نوع من التركيب الخاص، وإثبات أيضاً أن الخيال عبر عمله اللاواعي ينطلق من مبادئ البنية البسيطة، بمعنى الخضوع لنظام، فإذا نجح

المحلل في إثبات أن هذه المواضيع - يقول كويزيني- ناتجة عن بنية معقولة؛ إذا يكون حقا قد أتم مشروع البنيوية نفسه⁽⁸⁾.

موقف البنيوية من الشخصية يعكس موقفها من الشخص :

إن البنيوية قطيعة إبستمولوجية مع كل فلسفة تتخذ نقطة انطلاقها من الذات أو الكوجيتو، دفع إليها شعور الإنسان المعاصر بالحاجة إلى الإمساك بوحدة الواقع، التي تضمن للعقل فهم الواقع والتأكد منه، وأفضت إلى ضرورة النظر إلى الموضوع على أنه نظام أو نسق لكي يتسنى إدراكه أو التوصل إلى معرفته⁽⁹⁾. ولقد عكست البنيوية موقف الإنسان الأوروبي من حضارة الآلة وإحساسه بالاغتراب وبأنه تحول إلى رقم من الأرقام ضمن معادلة تتجاوزته وتتحكم في مصيره، ولئن نجحت البنيوية في التعبير عن هذه الحالة - جبرية الآلة - فإنها جعلت الإنسان أسير جبرية أخرى هي جبرية النسق أو اللغة / النظام من جهة أخرى. فالنسق يسبق اللغة، وإذا كان للذات وجود في المشروع البنيوي، فإنها الذات التي تكونها اللغة وتشكلها وليست الذات بمفهوم كانط Kant أو ديكارت Descart، ومنه لا تصبح الذات متكلمة بل متكلمة⁽¹⁰⁾.

ينطلق موقف البنيوية من الذات، لأنها تبحث عن ذات اجتماعية، وهي ذات قديمة وحديثة، ولا يمكن أن تعيش هذه الذات إلا مع الجماعة أو من خلالها⁽¹¹⁾؛ وذلك لأن هناك ملامح مشتركة، أما الذات، الحالة الخاصة، فتهم علم النفس، حتى إن إبعاد المؤلف كان شرطا لعلمية النقد عند البنيويين جميعهم. وهذا ما يفسر قلة اهتمامهم بالشخصيات وبالمؤلف بل حاول البنيويون أن يجعلوا المؤلف حاملا بلا وعي لنظام ما، واتهموا بقتله.

ويعكس موقف البنيويين من الذات قول جان بياجيه Piaget الذي يشترط شرطين :

أولا : يجب أن نفرق بين الذات الفردية التي لا تهم دراستنا والذات العلمية أو النواة المعرفية المشتركة بين كل الذوات الموجودة في المستوى نفسه.

ثانيا : يجب أن نقابل بين ما تستطيع الذات أن تفعله ضمن نشاطاتها الفكرية التي تعرف نتائجها وليس بدايتها، وبين الوعي الجزئي الذي غالبا ما يكون مشوها⁽¹²⁾.

إن ما يمكن استخلاصه من هذا القول هو أن التحليل البنيوي يهمل الذات الفردية مثلما يهمل النص الفردي أيضا. وينجح هذا التحليل إذا طبق على مجموعة من الأساطير أو القصص ويفشل أمام النص الواحد ما دام همه البحث عن العناصر المشتركة التي تنبئ بوجود نظام، اللهم إلا إذا درس النص الإبداعي الواحد ضمن نسق إبداعي برمته.

لقد بدأ إنسان القرن العشرين - كما يقول زكريا إبراهيم - يعرف ذاته بأنها مجرد بنية وأنه هو نفسه "إنسان دال" أو أنه صانع المعاني⁽¹³⁾، مع التأكيد على أن البنيوية تشدد على عملية الصناعة لا على المعاني وهذه نقطة ضعفها.

وتأسيسا على ما تقدم، تصبح الشخصية من منظور بنيوي مفهوما تحيليا وليس وجودا واقعا، تتجسد على الورق فتتخذ شكل لغة وشكل دوال مرتبة منطقيا أو إنزياحيا ينتج عنه انحراف عن القاعدة والمعياري في اتجاه توليد الدلالة في ذهن القارئ بعد فك شفرة العلامات الدالة كما أن الشخصية هي مدلولات هذه العلامات في ترافقها وتناسقها⁽¹⁴⁾. ومعاملتها بهذا الشكل، أي باعتبارها علامة، يحتم علينا دراستها ضمن شبكة علائقية يتم من خلالها البحث عن مواطن الاتفاق والاختلاف مع بقية العلامات وأيضا رفض كل تصنيف خارجي من مثل شخصيات رئيسية وشخصيات ثانوية.

غير أن التحليل البنيوي يتميز بالميكانيكية حيناً والجفاف المعنوي أحياناً أخرى لأن دراسة الشخصية باعتبارها دالاً مرة ومدلولاً تارة أخرى، أو من خلال رصد مستويات وصفها، لا يعكس حركيتها واشتغالها داخل الحكاية Récit. لقد اتسعت هوة الانتقادات التي وجهت إلى بروب، وكذلك التعديلات، وتعمقت أكثر مع السيميائيات السردية التي اعتبرت القراءة الخطية أو الترتيب الزمني للوظائف، لا يمثل إلا مستوى من مستويات القراءة؛ لأن التحليل المنطقي يؤكد على أن المظهر الخطي للملفوظات السردية فخ، وهو الشيء الذي وقع فيه بروب، وكان يجب البحث خلف هذا المظهر على بناء construction ومخطط plan؛ لأن وراء هذا التنوع اللانهائي للقصص، يوجد عدد قليل من الخطاطات والنماذج التي تتكرر، ويسمح الكشف عنها بجعل التحليل عقلانياً ومنطقياً⁽¹⁵⁾. كما أن وضعية افتتاحية تستدعي وضعية ختامية تعلق البرنامج السردية، حسب ما يذهب إليه غريماس Greimas وأتباعه، لأن القاعدة هنا استبدالية لا تجاورية، فلا تتجاوز الوظائف بقدر ما تستدعي الوظيفة نقيضها في النحو السردية، فهناك إلى جانب التجاور استبدال.

ولكي ندعم هذا الطرح نقدم هذه الجملة، التي تعد ملفوظ فعل، نموذجاً :

أكل الطفل طعامه على الساعة الثامنة

تستدعي هذه الجملة إجراءات نستطيع توسيعها لتشمل دراسة الشخصية، الإجراءات هي :

أولاً : لن يفيدنا البحث في المعجم والجذر شيئاً

ثانياً : تعرف عناصر نظام لساني - وهي أساس الملفوظات السردية - بإقامة تعارض بين العناصر فيما بينها، إذ نستطيع استبدال "الطفل" بـ "الرجل" أو "الطفلة" وتستبدل "أكل" بـ "تناول" أو "التهم"؛ إذ يهتم التحليل بالعناصر القابلة للاستبدال.

ثالثاً : يهتم التحليل بإبراز العلاقات المنطقية التي تربط هذه المصطلحات المتجاورة واختزالها في مصطلحات من مثل : مسند ومسند إليه وذلك بتقطيعها.

وسيسمح هذا المثال بملاحظة العمليتين اللتين نفذتا وهما : التقطيع والاستبدال، إذ يسعى التحليل إلى تحديد العناصر من خلال علاقتها وهي صنفان :

أ- صنف العلاقات الموجودة بين وحدات الملفوظ، على المستوى الخطي، وتسمى التجاورية، وهي عناصر أفقية تظهر أكثر في نموذج بروب الوظائف خصوصاً مع المتتاليات.

ب- صنف يعرف العناصر القابلة للظهور بالتناوب وتسمى الاستبدالية وهي عناصر عمودية، على نحو ما نلاحظه عند غريماس.

ومع أن بروب لجأ إلى مثل هذا الإجراء، عند ما قدم نموذجاً، إلا أنه وقف عند حدود الوظيفة ولم يهتم بالتغير لأنه ذو طبيعة استبدالية - الشخصية - في النماذج المقدمة على الرغم من أن العلاقة الإسنادية حاضرة دائماً، وتؤكد حضور الشخصية ولو عبر بعض أدواتها. ويبقى السؤال دائماً هل يمكن تلخيص حكاية دون ذكر الشخصية؟ وهل يمكن تصور حكاية بدون شخصية؟ هذا ما سيجيب عنه جون ميشال آدم J. M. Adam لاحقاً.

إن المثال السابق يؤكد أن معالجة الشخصية لن يتم خارج اللسانيات، سواء تعلق الأمر بالشخصية داخل الجماعة، أو الشخصية داخل الخطاب. أو تتبعنا مسارها في البنية السطحية، أو تحولاتها في البنية العميقة.

الشخصية : من الجملة إلى النص ومن السطح إلى العمق

يمكن أن تتسع مقولات البنية المقترحة لتحليل الحمل الفردية في اللسانيات لتطبق على تحليل البنيات الأكثر اتساعا في النصوص، وستكون النتيجة الحديث، على سبيل المثال، عن الأسماء كعناصر في بنية الجملة والأسماء كعناصر في البنية القصصية، وعن البنية العميقة والسطحية للحمل والبنية العميقة والسطحية للنصوص. ومادامت البنية السطحية النصية تتكون من جمل، وللحمل بنياهما السطحية والعميقة فثمة خلط محتمل هنا⁽¹⁶⁾، إن مثل هذا التقسيم على أهميته لا يجب أن يغفل خصوصية النص؛ لأن النص إذا اعتبرناه جملة كبيرة فليس بالضرورة أن تكون وحداتها جملا، كما تعتبر الجملة ضمن بعض المواصفات "خطابا" صغيرا، فالقصة تشارك بنويها في الجملة، ولكنها لا تستطيع مطلقا أن تحتل نفسها إلى مجموعة من الجمل⁽¹⁷⁾.

ويمكن ملاحظة البنية السطحية على نحو ملموس أكثر : من خلال الصوت والرموز المكتوبة وعلى نحو أكثر تجريدي : من خلال التركيب، ترتيب العبارات والكلمات. أما البنية العميقة فهي المضمون التجريدي للجملة : بنية المعنى⁽¹⁸⁾. إن التجريد يقتضي الاختزال ومنه تصبح الشخصيات المبعثرة على سطح القصة مجرد عوامل محددة العدد في البنية العميقة، كما أن هذه الشخصيات في المستوى الأول - مستوى السطح - لها أسماء وصفات وأدوار تؤديها وهي شخصيات مؤنسة؛ إن لم تكن إنسانية فستنسخ صفات الإنسان، أما في مستوى العمق فهي عوامل غير مؤنسة مرتبة وفق نموذج أعد سلفا.

إن أهم ما يميز البنية السطحية عن البنية العميقة هو أن الأولى زمانية والثانية لا زمانية، و تقتضي الزمانية الخطية بمعنى الحركة عبر الزمن، كما أن الأولى تنقل العلاقات المنطقية للتركيب، تكرر بعض المقاطع مثلا لا يقدم مجانا، بل تسعى بنية السطح إلى التأثير على فهم القارئ للأوجه البلاغية للنص⁽¹⁹⁾، في حين تؤسس البنية العميقة هيكلًا دلاليًا يعتمد على أكثر من نواة دلالية، حيث يشكل تحليل الجزء الإخباري للبنية العميقة أهمية بالغة : إنه لب المضمون المعرض الذي ينبنى عليه المعنى الكلي على أن النواة الدلالية للقضية هي "المسند" الذي يدرك كفعل أو صفة في البنية السطحية. وتنقسم المسندات عند فاوولر إلى عدد من الأنواع الدلالية الأساسية : البعض منها أفعال : تسلق، ركض، ضحك والبعض يكون حالات : أعتقد، سمع، عرف. والبعض الآخر عبارة عن تغييرات الحالة : كسر، أغلق، وسع⁽²⁰⁾. ويعبر تقسيم فاوولر عن تغير مدلولات الفعل إذ يعبر عن تحول أو حالة.

إن هذا الطرح نجده عند غريماش في تعريفه لذات الفعل وذات الحالة في نموذجه العاملي، إلا أن الغموض الذي يحيط بكلام فاوولر يلاحظ عند تعرضه للمسند إليه إذ يقول: يحيل العنصر الإخباري في البنية العميقة من جملة ما إلى بعض الظواهر أو فكرة خارج اللغة وينسب إليها بعض الخصائص فمثلا :
ينبح الكلب.

حيث تحيل هذه الجملة على مقولة موضوعية ضمن تجربتنا الخارج لسانية (كلب) وتسند له فعلا (ينبح). تشكل العلاقة بين الاسم والمسند الهيكل الدلالي للقضية⁽²¹⁾. إذ يجعل فاوولر الاسم فكرة وتجربة خارج لسانية تنسب إليها بعض الخصائص. غير أن العلاقة بين المسند والمسند إليه علاقة متلائمة؛ فالنبح يستدعي الكلب والكلب يستدعي الفعل (النبح) لأن المسند خاصية من خواص المسند إليه (الاسم). والشئ الملاحظ من كلامه أن البنية العميقة بما ألتها اختزالية تستدعي اختزال الحمل (وأيا النص) إلى مسند ومسند إليه، لأن البنى التحتية (العميقة) وخاصة في السرد كما يقول والاس مارتن W. Martin، هي في الحقيقة نماذج معان لا نماذج أفعال⁽²²⁾.

إن التمييز بين هذين المستويين من البنية هو ترجمة للاعتقاد السائد بأن هناك "طرائق مختلفة" ميسرة (بنيات سطحية) لقول نفس الشيء (بنية عميقة) في التواصل اللساني. وهذا الطرح أساسي في الأسلوبية التقليدية وكذا اللسانيات المعاصرة⁽²³⁾.

وقاد الحديث عن البنية العميقة للنص فاوهر إلى التعرض إلى المسندات القصصية والأسماء، إذ تعتبر حبكة النص القصص كمتوالية أفعال أو مسندا، كل واحد منها يؤسس حالة، فعلا، تغييرا لحالة عند المشاركين. و تختزل هذه الحبكات العدد اللانهائي من الإمكانيات في أنظمة عائلة الأفعال التي بدأها بروب وطورها النقاد الفرنسيون.

كما يمكن تصنيف الأسماء في البنيات العميقة للحكاية (الشخص في الأغلب لكن ليس وحدها) إلى أدوار مثل "العامل"، "المتقبل"، "الوسيط"، "الهدف" ... الخ. وهذا ما نجده عند تودوروف Todorov وغريماش اللذين احتزلا القصص والمشاركين فيها إلى صيغ وشيفرات⁽²⁴⁾.

مما سبق نلاحظ كيف ارتبط النص الأدبي - والرواية على الخصوص - باللسانيات باعتباره شبكة من العلاقات اللغوية وأصبحت المصطلحات المستعملة في التحليل الأدبي مصطلحات لسانية كالوظيفة، والاختلاف، والحائنة، والبدال، والفونيم، والمعلم ... الخ غير أن العلامة من طبيعة مغايرة تماما للعالم المنتج في القصص، نطلب منها أن تري أن تسمع ... الخ غير أن العلامة ليس لها من الصورة شيء، شكلها الخطي لا يستحضر لا من قريب ولا من بعيد شكل المدلول، ولا يستحضر جوهرها الصوتي (جوهر العلامة) أيضا الضجيج الناتج عن الآخر مع أن الروائي أو الشاعر يضطرهما لمخاطبة العين والأذن كما في عالم الخيال وذلك بالاستفادة من الاشتراكات المؤسسة عن الذوات المتكلمة ومن هنا يقع الإشكال لأن الأدب نظام دلالي⁽²⁵⁾ من الدرجة الثانية، وذلك لأنه يميل إلى الانزياح والإغراب وخرق المعهود.

استنادا إلى ما تقدم، نلاحظ أن التحليل السردى استفاد كثيرا من النتائج المتوصل إليها في لسانيات الجملة وتوسيعها لتشمل الخطاب، وبما أن الجملة لا يمكن لها أن تستغني عن المسند فهل تستغني الحكاية عن الشخصية عند البنيويين؟ لقد حسم الشكلائيون الأمر عندما أقصوا البطل من العمل الأدبي، كما مر بنا، عند توماشفسكي Tomatchevski، أو جعلوه أمرا ثانويا كما هو الشأن عند بروب غير أن مراجعة نموذج بروب من شأنها أن تجيبنا عن الكثير من الأسئلة التي أثارها محاولته ومنها تعريف الحكاية، وعلاقة الشخصية بها.

ينطلق ج. م. آدام في مراجعته لروب من المقولة السردية، وهي مكونة من جملة أو عدة جمل، والمقولة السردية la proposition narrative القاعدية تجمع وظيفة (أو وظائف) ومثلا (أو ممثلين)⁽²⁶⁾ مثل :

- هددت فاطمة زوجها بسكين

تتضمن هذه المقولة سلسلة من المساند النعتية المميزة للكائن - الذي يعرف بصفاته - عن الممثل Acteur أو القائم بالفعل.

م2 هو زوج م1

م2 هو رجل

م1 هي امرأة غاضبة

م3 هي أداة مستعملة في المشهد

م = الممثل

وتتضمن أيضا مسندا وظيفيا (فعل) مستعمل في زمن من أزمنة الحكاية : م1 هددت (في الماضي) م2 بواسطة م3. فعلى الرغم من محاولات بروب، فإن الشخصية لا يمكن أن تقصى من بنية القصة؛ لأن الوظيفة تعرف من منظور شخصية، ممثل الذي يكون عاملا لها Agent أو منفعلا بها patient، ولا تسلسل الوظائف إلا إذا جلبت لممثل مؤسس، ومنها نتحدث عن مقولات سردية⁽²⁷⁾.

وتقدم المقولة السردية على شكل مسند لعدد غير محدد للأدوار السردية ويقوم المسند بتنظيم العناصر وتوزيع الأدوار⁽²⁸⁾ ونستطيع اختزال المقولة السابقة إلى ثلاثة عناصر محتملة تكون مساهمة في القضية :

م1 = ممثل (فاعل) [+ نشيط + حيوي]

فهو المبادر بالفعل، ويعدل تدخله مسار الأشياء، في هذا المثال تقوم فاطمة بأداء دور القائم بالفعل فهي التي تهدد.

م2 = منفعل [- نشيط + حيوي]

فهو الذي يتلقى التغييرات، في المثال السابق يؤدي الزوج دور المنفعل، فهو الذي يتلقى التهديد.

م3 = أداة [- نشيط - حيوي]

يجسده السكين لأنه أداة الاعتداء

ومع أن الأمثلة المقدمة عبارة عن جمل، إلا أننا مطالبون بتبيان كيف أن سلسلة من الجمل تكون متتالية أو نصا متلاحما، هذا النص يستوجب علاقات تركيبية ودلالية، غير أن الالتحام النصي (أو المتتالية) هو علاقة افتراضية سابقة : يفترض السارد في الذي يقرأ أو يستمع القدرة على تأسيس علاقات هوية وربط مرجعي بين الكلمات، وبين المقاطع وبين المقولات، فيما سعى القارئ أو المستمع إلى تأسيس مثل هذه العلاقات لأنه يفترض منذ البداية التحاما نصيا⁽²⁹⁾ ومنه، نستطيع أن نعرف النص السردى بأنه رباط توتر بين ما يضمن وحدته - التحامه - وبين ما يوطر ديناميكيته - تطوره - إذ من الممكن أن نعتبر السرد وحدة متعارضة ناتجة عن التكامل ما بين مبدأ للالتحام (الت-) : كل نص (حكاية) هي متتالية من المقولات (م) المترابطة :

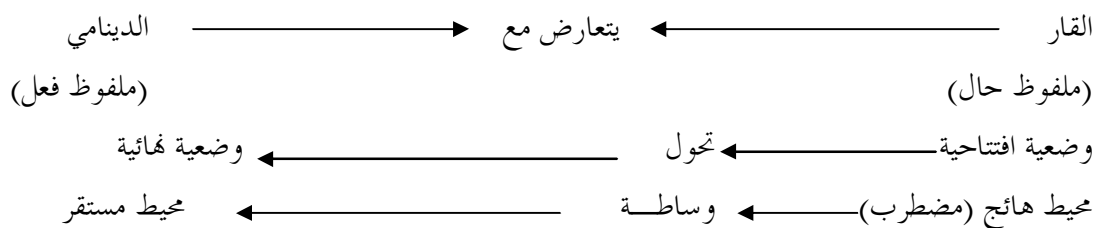
م1 (الت-) م2 (الت-) م3 (الت-) م4 ...

ومبدأ للتطور :

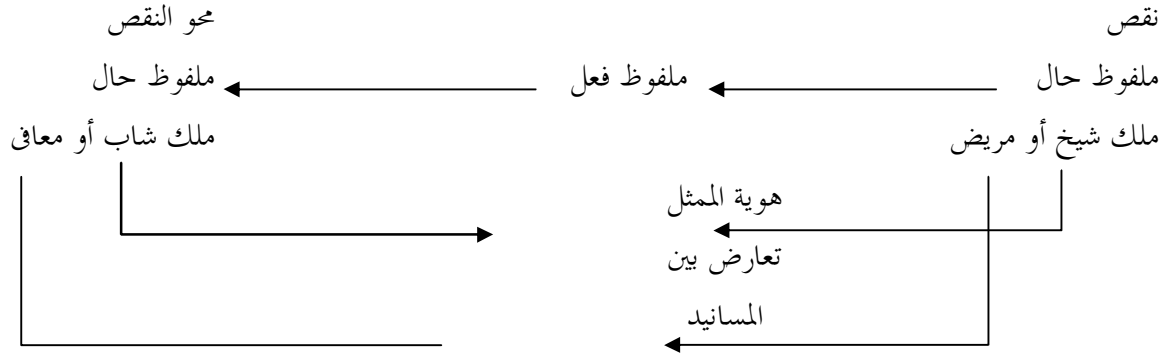
كل نص حكاية هو متتالية متطورة من المقولة :

م1 ← م2 ← م3 ← م4 ...

وتكون الشخصيات أول مبدأ للالتحام فلكي تكون هناك حكاية، يجب على الأقل أن يكون هناك ممثل ووحدة الفعل (أو سلسلة من الأحداث المترابطة)⁽³⁰⁾ يظهر التسلسل الحدتي بوصفه خيطا يضمن الربط بين التحام وتطور بيد أن وجود شخصية/ ممثل تقوم بتوجيه مجموعة من المقولات السردية المنظمة، عبر خرقها، لا يكفي لتحقيق حكاية، بل يجب أن يتحقق تحول وكمثال نجد الحكاية العجيبة التي تظهر كخطاطة Schéma :



اختبارات



إن التعريف البنيوي للحكاية Récit المعتمد عند الكثير من الدارسين هو تعريف تودوروف : تبدأ الحكاية المثالية بوضعية قارة تقوم قوة ما بتشويشها وبذلك يحصل اضطراب مما ينتج حالة من اللاتوازن؛ ثم تتدخل قوة موجهة تعمل في الاتجاه المعاكس، فيعود التوازن. التوازن الثاني هو شبيه بالأول لكنهما غير متطابقين... لتتوصل في الأخير على نموذجين للحلقات في الحكاية : تلك التي تصف حالة (توازن أو عدم توازن) وتلك التي تصف الانتقال من حالة إلى أخرى⁽³¹⁾.

وبناء على هذا التعريف لا تدخل الأعمال الروائية كلها ضمن نطاق دراسة من هذا النوع، بل ستشمل الدراسة الأعمال التي تحتوي على حكاية بمعنى تعكس تحولا لحالات.

لقد تعمق ربط الوظيفة بالذي يقوم بها أكثر مع البحوث السيميائية التي جعلت الوظيفة علاقة بين عاملين وأسهمت في نقل القراءة من مستوى السطح إلى مستوى أكثر تجريد.

ومنه لا يمكن استبعاد الشخصية الروائية من الدراسة؛ لأن الشخصية ليست بالضرورة الشخص في بعده المؤنس؛ ولأن النصوص في مستوى السطح تستدعي قائما بالفعل - واحدا على الأقل - يكون فاعلا للحدث أو منفعلا به كما أن الأدوات الإجرائية المعتمدة في الدراسات البنيوية يمكن تطبيقها على الشخصية بوصفها علامة .

الهوامش:

¹ -Jean Cuisinier : Le structuralisme in La philosophie, Marabout, Belgique, 1972, T 3. P 606

² - زكريا إبراهيم : مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة. ص 19.

³ -Georges Mounin : Clefs pour la linguistique, Seghers, 1971. P 84

⁴ -Ibid. PP 83, 84

* - لقد وضعنا دينارا بدل العملة الأجنبية التي وردت في متن كتاب شارودو.

⁵ -Patrick Charaudau : Langage et discours, Hachette, Paris, 1983. P 26

⁶ -Henri Lefèbre : L'idéologie structuraliste, Points, 1971. P 17

⁷ -Ibid. P 635

⁸ -Jean Cuisinier : Op.cit. P 634

⁹ - عبد العزيز حمودة : المرايا المحدث، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل 1998. ص 214.

¹⁰ - نبيلة إبراهيم : فن القص، مكتبة غريب، مصر، د.ت. ص 29.

¹¹ - زكريا إبراهيم : مشكلة البنية. ص 8 و 9.

- ¹² - جان بياحيه : البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط 3، 1982. ص 16
- ¹³ - المرجع نفسه. ص 11.
- ¹⁴ - محمد سويرتي : النص البنيوي والنص الروائي. ص 70.
- ¹⁵ - Jean Cuisinier Op.cit. P 611
- ¹⁶ - روجي فاوهر : اللسانيات والرواية، ترجمة لحسن أحمامة، دار الثقافة الدار البيضاء، ط 1. ص 22.
- ¹⁷ - رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص. ص 32 و 33.
- ¹⁸ - فاوهر : اللسانيات والرواية. ص 22.
- ¹⁹ - المرجع نفسه. ص 23 و 24.
- ²⁰ - المرجع نفسه. ص 30.
- ²¹ - المرجع نفسه. ص 29.
- ²² - والاس مارتن : نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد المجلس الأعلى للثقافة، 1998. ص 132.
- ²³ - فاوهر : مرجع سابق. ص 27.
- ²⁴ - المرجع نفسه. ص 46 و 47.
- ²⁵ - Michel Mansuy : Articuler une analyse du discours littéraire. P 139
- ²⁶ - Jean Michel Adam : Le texte narratif, Nathan, 1992. P 36
- ²⁷ - Ibid. P 36
- ²⁸ - Loc-Cit
- ²⁹ - Loc-cit
- ³⁰ - Loc-cit
- ³¹ - تودوروف : الشعرية ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال المغرب، ط 2، 1990. ص 69.